﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾ [الروم: 58 - 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ردُّ أهلِ العلمِ والإيمانِ على منكري البعثِ تشنيعٌ وتغليظٌ وفضحٌ لكذبِهم

لَمّا أبانَت هذه السّورةُ طرُقَ الإيمانِ، وألقَت عَلى وُجوهِ أهلِ الطُّغيانِ غايَةَ الخِزيِ والهَوانِ، وكانَ التَّقديرُ: لَقَدْ أتَيْنا في هَذِهِ السّورَةِ خاصَّةً بَعْدَ عُمومِ ما في سائِرِ القُرْآنِ بِكُلِّ حُجَّةٍ لا تَقومُ لَها الأمثالُ، ولَم نُبقِ لِأحَدٍ عُذرًا ولا شَيئًا مِن إشكالٍ، لِكَونِها لَيسَ لَها في وُضوحِها مِثالٌ، عَطَفَ عَلَيهِ قَولَهُ صارِفًا الكَلامَ إلى مَقامِ العَظَمَةِ تَقبيحًا لِمُخالَفَتِهِمْ لِما يَأتي مِن قبلِهِ وتَرْهيبًا مِنَ الأخْذِ مُؤَكِّدًا لِأنَّهم يُنكِرونَ أنْ يَكونَ في القُرْآنِ دَلالَةٌ، ومَن أقَرَّ مِنهم مَعَ الكُفرِ فَكُفرُهُ قائِمٌ مُقامَ إنكارِهِ، ولَمّا كانَ مِن أعجَبِ العَجَبِ أنَّ مَن يَدَّعي العَقْلَ يُصِرُّ عَلى التَّكْذيبِ بِالحَقِّ، ولا يُصْغي لِدَليلٍ، ولا يَهْتَدي لِسَبيلٍ، قالَ مُستَأنِفًا في جَوابِ مَن سَألَهُ: هَلْ يَكونُ مِثْلَ هَذا الطَّبعِ؟ فأجابَ سبحانه أنَّ من كان غارقًا في الجهلِ والإنكارِ فإنَّه سبحانه يطبعُ على قلبِه، فلا ينفتحُ لدلالة خيرٍ ولا لإشارةِ هُدى[1]، أي: فلَمّا انتَهَى ما أُقيمَت عَلَيهِ الآيات السابقة مِن دَلائِلِ الوَحدانيَّةِ وإثباتِ البَعثِ عَقِبَ ذَلِكَ بِالتَّنويهِ بِالقُرآنِ وبُلُوغِهِ الغايَةَ القُصوَى في البَيانِ والهُدَى[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبْنَا﴾: (ضرب) أصْلٌ واحِدٌ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُحْمَلُ عليه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 134.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 133 - 134.

مِنْ ذَلِكَ ضَرَبْتُ ضَرْبًا، إذا أوقَعْتَ بِغَيْرِكَ ضَرْبًا، ويُستَعارُ مِنْهُ ويُشَبَّهُ بِهِ الضَّربُ في الأرضِ تِجارَةً وغَيرَها مِنَ السَّفَرِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: 101]، ويَقولونَ: إنَّ الإسْراعَ إلى السَّيرِ أيضًا ضَربٌ(1)، والضَّربُ يَقَعُ على جَميعِ الأعمالِ، إلا قَليلًا(2)، والمعنَى المحوريُّ غِلَظٌ يخالطُ الشيءَ الرَّخْو أو يُداخِلُهُ مداخلةً قويةً(3)، والضَّربُ: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، ولتصوّر اختلافِ الضّربِ خولِفَ بين تفاسيرِها، كَضَربِ الشيءِ باليد، والعصا، والسّيف ونحوها(4)، وضَرْبُ المَثَلِ: هو اعتبارُ الشَّيءِ بغيرِهِ وتمثيلُهُ به، والضَّربُ هو المِثالُ، يُقالُ: هذهِ الأشياءُ على الضَّربِ، أي: على هذا المثالِ. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [النحل: 76]، أي: وصفَ وبيَّنَ(5)، والمعنى في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أيْ: قَدْ بَيَّنّا لَهُمُ الحَقَّ، ووضَّحْناهُ لَهُمْ؛ ليَتَبَيَّنوا الحَقَّ ويَتَّبِعوهُ(6).

2) ﴿يَطْبَعُ﴾: (طبع) أصْلٌ صَحيحٌ، وهو مَثَلٌ على نِهايَةٍ يَنْتَهي إلَيها الشَّيءُ حَتَّى يُخْتَمَ عِنْدَها، يُقالُ: طَبَعْتُ على الشَّيْءِ طابَعًا(7)، والمعنَى المحوريُّ جَعْلُ المادة اللَّيِّنَةِ على هَيئةٍ مُعَيَّنَةٍ مع تَسويةِ ظاهرِها على حَسَبِ ذلك؛ كطبع اللَّبِنِ والدراهم، وكحفر النهر، والظاهر المهيأ للشيء يُعدّ كأنه طبقة لاصقة بظاهره تغطيه(8)، والطبعُ والطَّبيعةُ: الخَليقةُ والسَّجيّةُ الَّتي جُبِلَ عَلَيْها الإنسان(9)، والطَّبْعُ: أن تصوّر الشيء بصورة ما، كَطَبعِ السّكّةِ، وطَبْعِ الدّراهم، وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش(10)، ومِنْ ذَلِكَ: طَبَعَ اللّهُ على قَلْبِ الكافِرِ، كَأَنَّهُ خَتَمَ عليه حَتَّى لا يَصِلَ إلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ، فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ(11).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضرب).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ضرب).
(5) الجوهري، الصحاح: (ضرب).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 328.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طبع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).
(10) الراغب، مفردات القرآن: (طبع).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يضرب القرآن للمعرضين الأمثال؛ ليَسْتَبينوا الحقَّ ويتَّبعوه

أشارَ البيانُ القرآنيُّ إلى أنَّ اللّهَ سبحانَه قد بَيَّنَ للناسِ في هذا القرآنِ الحقَّ ووضَّحَه، وضربَ لهم فيه الأمثال؛ ليَسْتَبينوا الحقَّ ويتَّبعوه، وأنَّه جلَّ شأنُه قد قصَّ عليهم من كلِّ صفةٍ عجيبة الشأنِ كصفةِ الكُفّارِ للمبعوثين يومَ القيامةِ، وما يقولون وما يُقال لهم، وما لا ينفعُ من اعتذارِهم، ولا يُسْمَعُ من استعتابِهم، ولئن أتيتَهم بآيةٍ منَ الآياتِ، أو بمعجزةٍ من المعجزاتِ الَّتي اقترحوها أو غيرِها ليقولَنَّ الذين كفروا لك وللمؤمنينَ الذين اتَّبعوك: إن أنتم إلّا أصحابُ أباطيلَ مُزَوِّرونَ، وذلك لشدَّةِ عُتوِّهم وعنادِهم وقساوةِ قلوبِهم، وما ذاك إلّا لأنَّ اللّهَ قد خَتَمَ على قلوبِ الجهلةِ الَّذينَ لا يطلبونَ العلمَ، ولا يَتَحَرّونَ الحقَّ، بل يُصِرّونَ على خرافاتٍ اعتقدوها، وتُرَّهاتٍ ابتدَعوها، فإنَّ الجهلَ يمنعُ إدراكَ الحَقِّ ويوجِبُ تكذيبَ المُحِقِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى (الواو) في جملةِ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾:

التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ وبُلوغه الغايَةَ القُصْوى في البَيانِ والهُدى

عطفتِ الواوُ قولَه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ على قولِه سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، وذلك للتوسط بين الكمالين، إذ اتفقتِ الجُمْلَتانِ في أنَّ كلًّا منهما جملةٌ خبريةٌ، مع وجودِ المناسبةِ بينهما، إذ شرع النَّظْمُ الحكيمُ في التَّنْويهِ بِالقُرْآنِ وبُلوغِه الغايَةَ القُصْوى في البَيانِ والهُدى، بعدَ أنْ أبانَ للمشركينَ عاقبةَ التَّكذيبِ بالبعثِ وسوءَ حالِهم، وردَّ استعتابَهم ومَعْذِرَتَهم.

نكتة التوكيد في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾:

ما ترك القرآن للظّالمين حجَّةً

أكَّدَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير الوسيط: 8/ 73.

﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ بلوغَ القرآنِ الغايةَ القُصْوى في الهداية وحثِّ النّاس على سبل الإيمانِ واليقينِ بالآخرة والبعثِ، فاستعملَ (اللامَ) و(قدْ)، فاللامُ قَسَمٌ مُقَدَّرٌ، أو هي لامُ الابتداء، و(قدْ) للتحقيق والتوكيد؛ إذ إنَّ تَأكيدَ الخَبَرِ الفِعْليِّ بـ(قَدْ) وباللّام لِلاهْتِمام بِهِ، كَما يَجيءُ التَّأكيدُ بـ(إنَّ) لِلاهْتِمام، ولَيْسَ ثَمَّ مُتَرَدَّدٌ ولا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَتَهُ[1]، وحَشَدَ النَّظْمُ الحكيمُ هذه المُؤَكِّداتِ الثلاثة لترسيخ قضيةٍ بالغةِ الأهميةِ، وهي قضية اشتمالِ البيانِ القرآنيِّ على كلِّ مَثَلٍ يهدي للحقِّ والإيمانِ للناسِ أجمعينَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالضرب:

إظهارُ فضيلةِ القرآنِ وما يَشْتَمِلُ عليْهِ من الهُدى

اشْتَمَلَ قولُه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ على استعارةٍ تصريحيَّةٍ تبعيَّةٍ، ولهُ وجهانِ اثنانِ: **الأول:** من قولِهم: (ضربَ في الأرضِ) إذا تَوغَّلَ وأبْعَدَ في أقاصيها، كأنَّ اللّهَ سبحانَه أرادَ بضربِ المثلِ تَسييرَه في الأرضِ وإدارتَه على ألسنةِ الناسِ حتى يَعُمَّهُم، **الثاني:** أن يكونَ من ضَرْبِ الخيامِ ونصبها وإقامتها؛ كأنَّ المرادَ من المَثَلِ إظهارُهُ للناس؛ لِتَستَدِلَّ عَلَيهِ خواطِرُهم، كما تَستَدِلُّ عيونُهم على الأشياءِ المنتصبةِ المتشخصةِ أمامَهُم، وكلا الوجهينِ حسنٌ لا تعارضَ بينهما، فمن لازمِ انتشارِ المَثَلِ وإشاعتِه أن يكونَ ظاهِرًا ماثلًا في خواطرِ النّاس[2]، وفي ذلك بيانٌ ساطعٌ ونورٌ باهرٌ على ما للقرآنِ في حياةِ الناسِ من أثرٍ بالغٍ.

نكتةُ إسناد الفعل ﴿ضَرَبۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة:

إبراز قدرة القرآن على البيان والهدى بشرف نسبته إلى الله تعالى

أُسنِدَ الفعل ﴿ضَرَبۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ تفخيمًا لشأن المَثَلِ القرآنيِّ، وإبرازًا لقدرتِه على البيانِ والهدى بشرفِ نسبته إلى اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 139.
(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 178.

تباركت آلاؤه، فالله ﷻ هو من يتولَّى بنفسه ضرب المثل للنّاس، وفي هذا ما فيه من لفت الأنظار إلى مضمون هذا المثل.

نكتة التعبير بالجار والمجرور وتقديمه:

ضرب الأمثال في القرآن لهداية الناس الذين أنكروا البعث

اللّام في قوله تعالى: ﴿ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ لام التّعليل، فضرب المثل إنّما كان لأجل اتّعاظ النّاس واعتبارهم به، ويمكن أن تكون للتّخصيص على معنى اختصاصهم به دون غيرهم، ولمّا كانَتِ العِنايَةُ فيها بِالنّاسِ أكْثَرَ بعدَ أن ضلَّ كثيرٌ منهم في قضيةِ البعثِ فَقَدَّمَهم في الذِّكْرِ[1] على القرآنِ وعلى ذكرِ المَثَلِ.

نكتة التعريف بـ(أل) في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

خطابُ الهدايةِ القرآنيَّةِ يشملُ البشرَ أجمعينَ

جاءتِ اللامُ في كلمةِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ لاستغراقِ الجنسِ؛ فإنَّ الخطابَ هَهُنا لجميعِ الخلقِ، إذ كلُّ الناسِ في أمَسِّ الحاجةِ لهداياتِ القرآنِ الواضحةِ وأنواره الهاديةِ[2].

معنى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾:

احتواءُ القرآنِ الكريمِ على كُلِّ مَثَلٍ نافعٍ كالتَّوحيدِ والحشرِ وصِدقِ الرُّسلِ

جاءتْ ﴿فِي﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ للدلالةِ على احتواءِ القرآنِ الكريمِ على كُلِّ مَثَلٍ نافعٍ؛ كالتَّوْحيدِ والحشرِ، وصدقِ الرُّسلِ، وسائرِ ما يحتاجونَ إلَيْه من أمرِ الدّينِ والدُّنْيا، ممّا يَهْتَدي به المُتَفكِّرُ، ويَعْتبرُ به النّاظرُ المُتدبِّر[3]، وذلك لأنَّ ﴿فِي﴾ تفيدُ معنى الظَّرفيَّةِ المكانيَّة أو الزمانيَّة، وإن اتَّسَعتْ في الكلام، فدلَّتْ على اشتمالِ القرآنِ لكلِّ هذهِ المعاني الجليلةِ.

دلالة التعبير باسم الإشارة في ﴿فِي هَٰذَا﴾:

تخصيص القرآن الكريم بالهدايةِ وتفخيم شأنه

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، ومُقتضَى الظاهرِ أن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 134.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 134.
(3) البروسوي، روح البيان: 7/ 60.

يكونَ النَّظْمُ (ولقد ضربنا للناس في القرآن)، ولكن جاء اسم الإشارة في محلِّ جرٍّ، و﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، وقدْ أفادَ اسمُ الإشارةِ هَهُنا عَددًا من الدلالاتِ الدقيقةِ، منها تخصيصُ الهدايةِ بالقرآن في المقامِ الأوَّلِ، ومنها تفخيمُ وتعظيم شأن القرآنِ وإعلاء قَدْرِه في نفوسِ الناسِ عامةً والمُؤمنينَ به خاصةً.

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول:

القرآن والنّاس محطّ عنايةِ المثَلِ القرآنيّ

قدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ القيدينِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ و﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ على المفعولِ بِهِ، وهو قولُه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، وذلك للاهتمامِ بهما، ولتخصيصِ ضربِ الأمثالِ وبيانِ الأدلةِ بالقرآنِ دونَ غيره، وهو سمتٌ أسلوبيٌّ في القرآن الكريم في كُلِّ المواضعِ المشابِهَة تقريبًا، فدائمًا ما يُؤَخِّرُ القرآن المفعولَ به ويُقَدِّمَ القيد ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ لبيان مزيدٍ من الاهتمامِ والعنايةِ.

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾:

ضَربُ الأمثالِ الصالحةِ للمُعْتَبِرين المتدبِّرينَ ما يَهديهم إلى الفلاحِ

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ متعلقةً بمحذوفٍ صفةً لمفعولٍ به محذوفٍ لـ﴿ضَرَبْنَا﴾، أي: ضَرَبْنا للنّاسِ في هذا القرآنِ عِبْرَةً أو مَوْعِظَةً كائنةً منْ كُلِّ مَثَلٍ، أو هيَ مُتَعَلِّقَةٌ بمحذوفٍ مفعولٍ به لـ﴿ضَرَبْنَا﴾ و﴿مِن﴾ تَبْعيضيَّةٌ، والأولُ أرجحُ[1]، والمعنَى الظاهرُ في ﴿مِن﴾ هَهُنا أنَّها إمّا لبيانِ الجنسِ وإما للتبْعيضِ، أي أنَّ اللّهَ ﷻ لم يضربْ كُلَّ الأمثالِ في القرآنِ، وإنَّما ضَرَبَ للناس من الأمثال الصالحة للمُعْتَبِرين المتدبِّرينَ ما يهديهم إلى الفلاحِ في الآخرةِ، وذهب فريقٌ من الكوفيّين إلى جواز أن تكون ﴿مِن﴾ زائدةً في الصِّناعةِ النَّحْويَّةِ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 120.

في حال الإيجاب[1]، وهيَ بهذا المعنى تفيدُ الاستغراقَ والتوكيدَ، وعلى هذا الرأي فإنَّها تؤكدُ استغراقَ القرآنِ لِكُلِّ مَثَلٍ صالحٍ نافعٍ في الدنيا والآخرة، قال الآلوسي: و﴿مِن﴾ تَبْعيضيَّةٌ، وجوِّزَتِ الزِّيادَةُ، وقيلَ: المَعْنى وباللَّهِ تَعالى لَقَدْ بَيَّنّا لِلنّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ يُنَبِّؤُهم عَنِ التَّوْحيدِ والبَعْثِ، وصِدْقِ الرَّسولِ ﷺ، فَضَرَبَ بِمَعْنى بَيَّنَ، والمَثَلُ عَلى أصْلِهِ، وقيلَ: بِمَعْنى الدَّليلِ العَجيبِ، والقُرْآنُ بِمَعْنى المَجْموعِ[2].

دلالةُ التَّعْبيرِ بلفظِ العُمومِ في قوله: ﴿كُلِّ﴾:

اشْتمالُ القرآنِ على كلِّ مثلٍ صالحٍ يهْدي للحقِّ

أفادَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ اشتمالَ القرآنِ على كلِّ مَثَلٍ صالحٍ نافعٍ يهدي للآخرةِ ويرشدُ إلى الإيمانِ بالبعثِ والأنبياءِ وغيرِها، أي: مِن كُلِّ مَثَلٍ يَدُلُّهُمْ على ما يَحْتاجونَ إليه، ويُنَبِّهُهُمْ على التَّوْحيدِ وصِدْقِ الرُّسُلِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَثَلٍ﴾ ولطيفةُ تنكيرِه:

أمْثالُ القرآنِ أوضَحُ وأثْبَتُ مِن أغلامِ الجِبالِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بكلمةِ ﴿مَثَلٍ﴾، أي: وصَفْنا لهم كُلَّ صِفةٍ كأنَّها مَثَلٌ في غَرابَتِها، وقَصَصْنا عَليهم كُلَّ قِصَّةٍ عَجيبَةِ الشَّأنِ، كَصِفَةِ المَبعوثينَ يَومَ القيامَةِ، وما يُقالُ لَهم، وما لا يَقَعُ مِن اعتذارِهم، ولا يُسمَعُ مِن استعتابِهم، ولَكِنَّهم لِقَسْوةِ قُلوبِهِمْ ومَجِّ أسْماعِهم حَديثَ الآخِرَةِ، إذا جِئتَهم بِآيَةٍ مِن آياتِ القُرْآنِ قالوا: أجِئتَنا بِزورٍ باطِلٍ؟[4]، وجاءتْ كلمةُ ﴿مَثَلٍ﴾ لإفادة العمومِ والشمولِ، فأفادَ التنكيرُ مع بقيةِ دقائقِ الجملةِ الكريمةِ الإشارَةَ إلى إزالَةِ الأعْذارِ والإتيانِ بما فَوقَ الكِفايَةِ مِنَ الإنذارِ، وإلى أنَّهُ لَم يَبقَ مِن جانِبِ الرَّسولِ ﷺ تَقصيرٌ،

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 83.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 499.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 454.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 589.

فَإن طَلَبوا شَيئًا آخَرَ فَذَلِكَ عِنادٌ، ومَن هانَ عَلَيهِ تَكذيبُ دَليلٍ لا يَصعُبُ عَلَيهِ تَكذيبُ الدَّلائِلِ[1].

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾:

عدمُ انتفاعِ منكري البعثِ بالآياتِ الدامغاتِ دليلٌ على ختمِ قلوبِهم

جاءتِ الواوُ عاطفةً في قولِه ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ﴾ فعطفتْ هذه الجملة على كلامٍ مقدَّرٍ يُفهم من سياق الكلام في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، عَلى نَحْوِ: فَلَم يَنفَعهم شَيءٌ مِن ذَلِكَ، إذ لَمّا كانَ المَختومُ عَلى مَشاعِرِهم مِنهم لا يُؤْمِنونَ بِشَيءٍ، وكانَ ذَلِكَ مِن أدَلِّ الأدِلّة عَلى عِلْمِهِ تَعالى وقُدْرَتِهِ[2]، وهَذِهِ الجُمْلَةُ سيقَت لِلتَّنبيهِ عَلى أنَّ الكُفرانَ مَطبوعٌ في نُفوسِهِم[3]، فهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفّارِ بِعدَمِ تفكُّرِهم وسوءِ رأيِهم؛ فإنَّ النَّظرَ السَّويَّ يَقْتضي الإذعانَ لكلِّ آيةٍ بيِّنةٍ صادقةٍ صريحةٍ في إثباتِ البعثِ.

معنى اللامِ في قولِه: ﴿وَلَئِن﴾:

اختزالُ الألفاظِ بتقديرِ الجوابِ وأداءُ المعاني على وجهِ الصَّوابِ

اجتمعَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ﴾ قسمٌ وشرطٌ، أما القسمُ فدلَّتْ عليه اللامُ؛ فهي تُؤْذِنُ بقسمٍ محذوفٍ متقدمٍ، فقد اجتمعَ القسمُ المُتقدِّمُ المحذوفُ، والشَّرطُ متأخرٌ عنه، فجوابُ القسمِ هو قولُه تعالى: ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾، فاللّامُ في (لَئِنْ) موطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ دَخَلَتْ عَلى حَرْفِ الشَّرْطِ[4]، وإذا اجتمعَ الجزاءُ والقسمُ فأيُّهما سبق الآخرَ وتصدَّرَ كان له الجوابُ، وجوابُ القسمِ المحذوفِ سدَّ مسدَّ جوابِ الشرطِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

التعبيرُ بالمجيءِ لما فيهِ مشقةٌ والتعبيرُ بالإتيانِ لما فيهِ سهولةٌ ويسرٌ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفعلِ (المجيء) دونَ فعلِ (الإتيان) في قولِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 134.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(3) التحرير والتنوير: 21/ 124 - 125.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 586، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 65، والآلوسي، روح المعاني: 20/ 483.

اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وذلك لأنَّ منْ عادةِ القرآنِ الكريمِ أنْ يستعملَ (أتَى) لما هو أيسرُ من (جاء)؛ لأنَّ المجيءَ فيه صعوبةٌ وشدَّةٌ مقارنةً بـ(أتى)، أو لِما هو أصعبُ وأشقُّ مما تُستعملُ له (أتى)، ولذلك يكادَ يكونُ هذا طابعًا عامًا في القرآنِ الكريمِ ولذلك لم يأتِ فعلُ (جاء) بالمضارع ولا صيغةِ الأمرِ ولا اسمِ الفاعلِ[1]، ولذلك قيلَ للسَّيْلِ المارِّ على وجهِه (أتيٌّ)؛ لأنّ الإتيانَ: مجيءٌ بسهولةٍ[2]، ولمّا كانتِ القضيةُ ههُنا تتعلَّقُ بإثباتِ البعثِ، والحديثِ عن عدمِ قبولِ المعذرةِ والإعراضِ عن الاستعتابِ، وكلُّها أمورٌ تتضحُ فيها المَشَقَّةُ والشدَّةُ فكانَ التعبيرُ بالمجيءِ أنسبَ للسّياقِ، وجاء فعل الشرطِ ماضيًا، والقياسُ فيه أن يكونَ مضارعًا؛ لأنَّ حصولَه يكونُ في الاستقبالِ، والغرضُ من ذلك التعريضُ بعنادِهم واستكبارِهم وسوءِ فَهْمِهم.

ينكر المشركون ما جاء به النبي من الآيات وما جاء به مَن سبقه من الأنبياء

نكتة تغيير الخطاب في الآية:

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بتَوْحيدِ الخطابِ في: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾، وبالجَمْعِ في: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾، وفي ذلكَ عددٌ مِنَ الدَّلالاتِ الدَّقيقَةِ والنِّكاتِ الخفيَّةِ، منها أن التعبيرَ بالإفرادِ دلالةٌ على تخصيصِ النبيِّ ﷺ بالمجيءِ بالآياتِ وحدَه، وفيه تشريفٌ له ﷺ[3]، ومنها أنَّ المعنى: ولَئِنْ جِئْتَهم بكُلِّ آيَةٍ جاءَتْ بها الرُّسُلُ، ويُمْكِنُ أنْ يُجاءَ بها، فإنهم سيَقولونَ أنْتُمْ كُلُّكم أيُّها المُدَّعونَ للرِّسالَةِ مُبْطِلونَ[4]، أي أنَّ إنكارَهم لا يقعُ على ما جاء به النبيُّ ﷺ فحسبُ، بل يشملُ إنكارُهم كلَّ ما جاءَ بِه الرسلُ السابقونَ، وأشار الآلوسيُّ إلى أنَّ نكتةَ

(1) فاضل السامرائي، لسمات بيانية، ص: 114، ومن أسرار البيان القرآني، ص: 50.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (أتى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 135.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 135.

الإفرادِ والجمعِ ترجعُ إلى أنَّ تَوْحيدَ الخِطابِ في ﴿جِئْتَهُم﴾ عَلى ما يَقْتَضيهِ الظّاهِرُ، وأمّا جَمْعُهُ في قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾، فَلئَلّا يَبْقى بِزَعْمِهِمْ لَهُ ﷺ شاهِدٌ مِنَ المُؤْمِنينَ حَيْثُ جَعَلوا الكُلَّ مُدَّعينَ[1]، وهذا من مكرِهم وسوءِ اعتقادِهم.

نكتةُ إيقاعِ فعلِ المجيء على ضميرِ جماعتِهم:

اجتماعُ الكُفّارِ على الضلالةِ والاستكبارِ يقْتضي إرسالَ الآياتِ لهُم مُجتمعينَ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أَسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿جِئْتَهُم﴾ إلى ضميرِ الجمعِ إشارةً إلى أمرينِ، **الأول:** كثرة عددِ المكذِّبينَ بالبعثِ والآخرةِ، كما أشار القرآنُ الكريمُ في مواضعَ شتّى بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: 17]، **والآخر:** أن اجتماعَهم على التَّكذيبِ والإنكارِ يقْتَضي إرسالَ الآياتِ لَهُم مجتمعينَ، لئلا يكونَ لأحدِهم حجةٌ بعدمِ بلوغِه الآياتِ أو عدمِ شمولِ الخطابِ له.

معنَى (الباء) في القيدِ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

اقترانُ المجيءِ بإظهارِ المعجزاتِ من علاماتِ النُّبوَّةِ وأماراتِها الظاهرةِ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ﴾ للملابسةِ، أي: لئن جئتهم بآية من عند ربِّك تكونُ مصاحبًا لها، دالةً على صدقِك، فلنْ تغيِّرَ هذهِ الآيةُ شيئًا منْ عنادِهم واستكبارِهم وغُرورِهم، وقدْ تكونُ الملابسةُ هنا بمعناها الواسعِ، أي: لكَ تَمَكُّنٌ منْ إظهارِ آيةٍ معجزةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ولطيفةُ تنكيرِها:

المرادُ بالآية هنا المعجزةُ الماديَّةُ المحسوسةُ الدالةُ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ﴾ التعبيرَ بـ(الآية) دون (البيّنَة) أو (العلامة)، إذ المرادُ بـ(الآية) ههُنا: الدلالَةُ الواضِحَةُ عَلى صِدْقِكَ مُعْجِزَةً مَرْئِيَّةً كانَتْ أو مَسْموعَةً، وهي العلامةُ الثابتةُ، فما بِهِ الدعوى مِنْ حيثُ إفادتُه للبيانِ يُسمَّى بَيِّنَةً،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 499.

والعلامةُ ما يكونُ قبلَ وقوعِ الشَّيْء، وآياتُ اللّهِ: عجائبُهُ ومعجزاتُه، وقد كَثُرَ استعمالُ الآيةِ بمعنى العلامةِ الإعجازيَّةِ، وناسبَ لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ السياقَ أتمَّ المناسبةِ لما كانَ عليهِ المشركونَ من إنكارٍ للبعثِ وغلبةٍ للمادية عليهم، إذ المرادُ بالآيةِ هنا المعجزةُ الماديَّةُ المحسوسةُ، وجاءت ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ نكرةً لإفادة العموم، وهذا يدلّ على شدّة تكذيبهم وإنكارهم لكلّ آية تأتيهم مهما بلغ شأنها.

سِرُّ التوكيدِ في قوله: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

التَّنْبيه على عُتوِّ المشركينَ ومبالغَتِهم في إنكارِ البعثِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولُنَّ﴾ أكّدَ النَّظْمُ الحكيمُ استكبارَ الكُفّارِ وإعراضَهم عن الحقِّ والإيمانِ بالبعثِ بأداتينِ من أداوتِ التوكيدِ، الأولى هي اللامُ المؤطئةُ للقَسَم، والأخرى نونُ التوكيد الثقيلة، وذلك للتنبيهِ على فَرْطِ عُتوِّهِمْ، وعِنادِهِمْ، وقَساوةِ قُلوبِهِمْ[1] في إنكارِهم للبعثِ وخطابهم للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

التعبيرُ بالقولِ للمُجاهَرةِ ولِصَدِّ النّاسِ عنِ الإيمانِ بالآياتِ البيِّناتِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ موقفِ الكُفّارِ من مجيءِ الآيات بفعلِ (القولِ) دون غيره؛ لبيانِ مدَى استكبارِهم وعُتوِّهم، إذ لمْ يكتفوا بالإنكارِ في ذواتِ نفوسِهم، بلْ جاهروا به بملء أفواهِهم ليَصُدّوا النّاسَ عن الإيمانِ بالآياتِ البيِّناتِ الحاسمةِ بشأن البعثِ، وعُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ المُؤَكَّدِ لإفادةِ تقريرِ استمرارِ قولِهم هذا وتَجَدُّدِه؛ إشْعارًا بأنَّهم يقولونَه عن عنادٍ شديدٍ واستكبارٍ مستمرٍّ.

عِلَّةُ التعبيرِ بالموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الكفرُ هو السَّببُ الحاملُ لهؤلاء المعاندينَ على العنادِ والإنكارِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالمَوْصولِ دونَ الضَّميرِ فذهب البقاعيُّ إلى المرادَ به التعبيرُ عن الحُكْمِ بكُفْرِهِمْ لأجلِ ما هُم فيه من غِلْظَةٍ وجفاءٍ، في حين أشارَ الآلوسيُّ إلى أنَّ هذا التعبيرَ إنَّما هو لبَيانِ السَّبَبِ الحاملِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

عَلى القَوْلِ المَذْكورِ، وإذا أُريدَ بالنّاسِ ما يَعُمُّ الكَفَرَةَ وغَيْرَهُمْ، فَوجْهُ الإظْهارِ ظاهِرٌ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الكُفرِ مادّةً وصيغةً:

تأصل الكفر في نفوسهم وشدّة إنكارهم وعُتوّهم

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بمفردةِ الكفرِ دون غيرِها من المفرداتِ مثل (الظُّلم) و(الشِّرك) و(الإجرام)؛ لأنَّ السياقَ في الآيةِ الكريمةِ إنَّما يتحدَّثُ في المقامِ الأولِ عن الإنكارِ والعُتوِّ والاستكبارِ والجحودِ بآياتِ اللهِ، فكان التعبيرُ بمادةِ الكفرِ أنسبَ للمقامِ؛ لأنَّها مشتملةٌ على كلِّ ذلك، وعدلَ النَّظْمُ عن الكافرين والكُفّارِ لبيانِ تأصُّلِ هذه الصفاتِ فيهم، حتى أصبحوا يعرفون بها أكثرَ من غيرها.

بلاغة القصر في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾:

عناد المشركين وقلوبهم للحقائق الدامغة

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بأسلوبِ القَصْرِ باستعمالِ ﴿إِنْ﴾ التي تفيدُ النفيَ و(إلّا) التي تفيد الاستثناءَ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهو قصر موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيّ؛ لأنّ قصر الموصوف على الصّفة لا يكون إلّا إضافيًّا، أي أنَّ هؤلاءِ المشركينَ يقولون: أنتمُ مُزَوِّرونَ، بل أنتم لا تنْفكّونَ عن صفةِ الإبطالِ والتَّزويرِ، وفي حكايةِ القرآنِ الكريمِ لاستعمالِ المشركينَ لهذا الأسلوبِ دلالةٌ على قَسوةِ قلوبِ المشركينَ وشدَّةِ عنادِهم، ومكرِهم وخبثِ طويَّتِهم، وتعاميهِم عن الحقِّ مهما بلغتْ درجةُ وضوحِه وبرزتْ براهينُه لكلِّ ذي عيْنَين، فهُم يرمونَ النبيَّ ﷺ - وحاشاه - والمؤمنينَ معهُ بتعمدِ إبطالِ حقائقِ الأشياءِ وقلبِها، وتزويرِها.

دلالةُ التعبيرِ بلفظ ﴿مُبْطِلُونَ﴾ مادةً وصيغةً:

استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ - في حكايته لقولِ المشركينَ عنِ المؤمنين - مادةَ الإبطالِ، فقال على لسانهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

والإبطالُ يقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالته، حقًّا كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو باطلًا، وقدْ يقالُ فيمنْ يقولُ شيئًا لا حقيقةَ له[1]، والمُبْطلونَ هنا: المزوِّرون الآخذونَ بالباطلِ وأصْحابُ الأباطيل[2]، فهو اتهامٌ فِجٌّ للمؤمنينَ بأنَّهم منْ أهْلِ العَراقَةِ في الباطِلِ، ومرادُ الكفّارِ مُنكري البعثِ وصْمُ المؤمنينَ أنَّهم يأتونَ بِما لا حَقيقَةَ لَهُ في صورَةِ ما لَهُ حَقيقَةٌ، وأمّا الَّذينَ آمَنوا فَيَقولونَ: نَحْنُ بِهَذِهِ الآيَةِ مُؤْمِنونَ[3]، وهذا إخبارٌ عن عنادِ المشركينَ وتكذيبِهم، وأنَّهُم لا يعقلونَ عن شركِهم وكفرِهم بالآياتِ الواضحةِ إن أُتوا بها[4]، وجاءتْ ﴿مُبْطِلُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ مسندًا إلى ضميرِ الجمعِ، ليشيرَ إلى دعوى الكُفّارِ بثباتِ هذه الصِّفةِ في المؤمنينَ ورسوخِها فيهم على الدوامِ، وهو برهانٌ على شدَّةِ تمادي الكُفّارِ في الضَّلالِ البعيدِ وغِواية الكذب والبهتانِ.

وصفُ النبيِّ والمؤمنينَ بالإبطالِ اتهامٌ فِجٌّ وهو دليلٌ على عمى المشركينَ

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلَها:

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ بين هذه الآيةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والآيةِ السابقةِ عَلَيْها، وذلك لكمالِ الاتصالِ بين الجملتينَ، إذ كلتاهُما جملة خبريَّةٌ، وبينهما من الاتصالِ والاتحادِ والتلاحمِ ما يُغني عن العطف، فهذه الجملةُ نتيجةٌ للجملة السابقةِ، ومؤكِّدةٌ للمعنى نفسه الوارد فيها، وهو تكذيبُ الكفّارِ بالآياتِ والأمثالِ التي ضربَها اللّهُ لهُم، فأعرضوا عنها، فكانَ الضربُ على قلوبِهم نتيجة لعصيانِهم واستكبارِهم، وأشارَ الطاهر ابن عاشور إلى أنَّ هذه الجملة اعتراضٌ بَيْنَ الجُملَتَينِ المُتَعاطِفَتَينِ تَمهيدًا لِلأمرِ بِالصَّبرِ عَلى غَلوائِهِم[5]، ويمكنُ أنْ يكونَ الفصلُ بين الجملتينِ لِشبهِ

الضربُ على قلوبِ الكفّارِ لعصيانِهم واستكبارِهم

(1) الراغب، مفردات القرآن: (مثل).
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 312، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 67.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 87.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 134.

كمالِ الاتصالِ بينهُما، فهو استئنافٌ بيانيٌّ، إذ لمّا كانَ مِن أعْجَبِ العَجَبِ أنَّ مَن يَدَّعي العَقْلَ يُصِرُّ عَلى التَّكْذيبِ بالحَقِّ، ولا يُصْغي لِدَليلٍ، ولا يَهْتَدي لِسَبيلٍ، قالَ مُسْتَأنِفًا في جَوابِ مَن سَألَهُ: هَلْ يَكونُ مِثْلَ هَذا الطَّبْعِ؟ ومُرَغِّبًا في العِلْمِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أيْ مِثْلَ هَذا الطَّبْعِ العَظيمِ جِدًّا[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ بالكاف في ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تشبيهٌ مُرْسَلٌ مُجمَلٌ، ومعناه: مِثْلُ ذلكَ الطبعِ نطبعُ على قلوبِ منكري البعثِ الذينَ لا يعلمون شيئًا منْ أمورِ الآخرة، وغرضُ التشبيهِ بيانُ حالِ المشبَّهِ.

منكر البعث جاهل بأمور الآخرة

وكاف التّشبيه يجوز أن تكونَ اسميَّةً بمعنى (مِثْل) في محلِّ نصبِ نائبِ مفعولٍ مطلقٍ، صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، واسمُ الإشارةِ في مَحَلِّ جرٍّ مضافٍ إليه، ويجوز أنْ تكونَ حرفَ جرٍّ، واسمُ الإشارةِ في محلِّ جرٍّ، وهُما متعلقانِ بمحذوفٍ نائبٍ عن مفعولٍ مطلقٍ[2].

نكتة استعمال اسم الإشارة البعيد ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

أفادَ استعمالُ اسم الإشارةِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ معنى بُعْدِ هؤلاءِ الكُفّارِ عن رحمةِ اللّه وتوفيقِه، بعدَ الخَتْمِ على قلوبِ هؤلاء واستنفاد كُلِّ وسائلِ الدعوةِ، فَلَمْ يستجيبوا فلا أملَ في هدايتِهم ولا جَدْوى من سَماعِهم، فأمْعَنوا في الابتعادِ عن صراطِ اللّهِ، وهو كذلكَ طبعٌ بعيدٌ في رتبةِ المنعِ والشِّدَّةِ؛ تعظيمًا له، وإيماءً إلى أنَّه طبعٌ محكمٌ بحيثُ لا يزولُ، فهو طبعٌ محكمٌ.

إنزال البُعد المعنويّ منزلة البعد الحسّيّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالطَّبْعِ مادَّةً وصيغةً:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 120، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 134.

استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ مادةَ (الطبع)؛ للدلالةِ على غَضَبِ اللّهِ عليهم وطردِهم من حَظائرِ رحمتِه، إذ المرادُ بطَبْعِ اللّهِ على قَلْبِ الكافرِ، أنْ يَختِمَ عليه حَتَّى لا يَصِلَ إلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ، فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[1]، والطَّبْعُ عَلى القَلْبِ كذلك: تَصْييرُهُ غَيْرَ قابلٍ لِفَهْمِ الأُمورِ الدّينيَّةِ وهو الخَتْمُ، وعبَّرَ بصيغةِ المضارعةِ لإفادةِ تجَدُّدِ الطبعِ واستمرارِه، ولاستحضارِ صورةِ الطَّبْعِ وتأكيدِ إحكامِه في الأذْهانِ.

طَبعُ اللّهِ على قَلْبِ الكافِرِ بألّا يَصِلَ إلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ

بلاغة الاستعارَةِ في الآيةِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، فاستعارَ الطبعَ لعدمِ دخولِ الإيمان في قلوبِهم، ولإنكارِهم لكلِّ آيةٍ بيِّنَةٍ وكلِّ مَثَلٍ صالحٍ، فشبَّه القلوبَ بالشَّيءِ الَّذي يُختَمُ عَلَيه، فلا يُمْكِنُ أنْ يَتَطَرَّقَ إلَيْهِ التَّغييرُ، ويَمْتَنِعُ دُخولُ شَيْءٍ عَلَيْه، فكَذلكَ قلوبُ هؤلاءِ، امتنعَ دخولُ الإيمانِ عَلَيْها، فحذَفَ المُشَبَّهَ بِهِ، وأبْقَى الدَّليلَ عَلَيْه، والجامعُ بينَهُما امتناعُ الدُّخولِ، فَشَبَّهَ النِّظْمُ إحداثَ اللّهِ تعالى في نفوسِ الكفارِ هيئةً تُمَرِّنُهم وتُعَوِّدُهم على استحبابِ الكُفرِ والمعاصي واستِقْباحِ الإيمانِ والطّاعاتِ بسببِ إعراضِهم عن النَّظرِ الصحيحِ بالخَتْمِ والطبعِ على الأواني ونَحْوِها في أنَّهُما مانعانِ؛ فَإنَّ هذهِ الهيْئَةَ مانِعةٌ عنْ نُفوذِ الحقِّ في قُلوبِهم كما أنَّ الطَّبعَ على الأواني ونَحوها مانعٌ عنِ التَّصرُّفِ فيها، ثُمَّ استُعيرِ الطَّبعُ لتلكَ الهيئةِ، ثُم اشْتُقَّ مِنْهُ ﴿يَطْبَعُ﴾ فيكونُ استعارةً تَبَعيَّةً، تُبيِّنُ جزاءَهُم بسببِ إمعانِهم في التَّكْذيبِ والإنكارِ[2].

القلوبُ القاسيةُ مُتَحَجِّرَةٌ فلا تؤثِّرُ فيها آيةٌ ولا يُغَيِّرُها مَثَلٌ

دلالةُ إسنادِ الطبعِ إلى اسمِ الجلالةِ:

أظْهَرَ النَّظمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اسمَ الجلالةِ الأعْظَم، فكَونُ الشَّيءِ

إظهارُ الاسمِ الأعظَمِ تأكيدٌ على شِدَّةِ الطَّبْعِ واستحالةِ تَغَيُّرِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(2) البروسوي، روح البيان: 7/ 61.

الواحِدِ لِناسٍ هِدايَةً ولِناسٍ ضَلالَةً جامِعًا إلى العَظَمَةِ تَمامَ العِلمِ والحِكمَةِ، فصَرَفَ الخِطابَ عَنْها إلى الاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ، فَقالَ: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي: الَّذي لا كُفْؤَ لَهُ، فَمَهْما أرادَ كانَ، عادَةً مُسْتَمِرَّةً لَهُ سبحانَه[1]، لا يُنازِعُه فيها منازِعٌ، وفيهِ كَذَلِكَ تأكيدٌ على شِدَّةِ الطَّبْعِ واستحالةِ تَغَيُّرِه.

علَّةُ اختصاصِ القلوب بالطبعِ ونكْتَةُ جمعها:

القلوب محلّ الإيمانِ والتصديق لذلك اختصت بالطبع

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ خَصَّصَ النَّظْمُ الحَكيمُ الطبعَ بالقلوبِ؛ وذلكَ لأنَّ القلوبَ مَحَلُّ الإيمانِ والتصديقِ، وإنَّما جَعَلَ الطبعَ جزاءً لَهُم؛ لأنَّ إنكارَ البعثِ والطَّعنَ في الأنبياءِ والمؤمنينَ جُرْمٌ شنيعٌ وإثمٌ عظيمٌ، فناسَبَهُ أن يكونَ الجزاءُ موافقًا لتلكَ البشاعَةِ، فكانَ الطَّبْعُ على قلوبِهم، ونَبَّهَ عَلى كَثْرَةِ المَطْبوعِ عليهمْ بجَمْعِ الكَثْرَةِ[2].

نكتةُ إضافةِ القلوبِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

العدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ لزيادةِ الوصفِ بانتفاء العلمِ

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عن إضافَةِ القلوب إلى ضمير الجمع (قلوبهم)، فأظْهَرَ إضافتَها إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وذلكَ لِزيادَةِ وصْفِهِمْ بانْتِفاءِ العِلْمِ عَنْهم، والمُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الَّذينَ كَفَروا أنْفُسُهم، فَوصَفَهُم بعدم العلم، بَعْدَ أنْ وُصِفوا: بِـ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وفي تنويعِ الوصْفِ بهذهِ الصِّفاتِ كُلِّها بيانٌ لعراقَةِ هؤلاء المكذبينَ في الكُفْرِ والإنكارِ، فاستحقوا الجزاءَ الشديدَ بالطَّبعِ على القلوبِ[3].

دلالة نفي المضارع في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

جاءتْ ﴿لَا﴾ نافيَةً في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 135.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فأفادتْ عَدَمَ قابليَّهم للعِلْمَ، فهم لا يَطْلُبونَ عِلْمَ ما يَجْهَلونَهُ ممّا حَقَّقَهُ هَذا الكِتابُ مِن عُلومِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، رِضًى منهم بما عِنْدَهم مِن جَهالاتٍ سَمَّوْها دَلالاتٍ، وضَلالاتٍ ظَنّوها هِداياتٍ وكَمالاتٍ[1]، فلا يَتَحَرَّوْنَ الحَقَّ، بَلْ يُصِرّونَ عَلى خُرافاتٍ اعْتَقَدوها، وتُرَّهاتٍ ابْتَدَعوها، فَإنَّ الجَهْلَ المُرَكَّبَ يَمْنَعُ إدْراكَ الحَقِّ، ويوجِبُ تَكْذيبَ المُحِقِّ، وإطْلاقُ العِلْمِ عَلى الطَّلَبِ مَجازٌ؛ لِأنَّهُ لازِمٌ لَهُ عادَةً[2].

عَـدَم قابليَّة الكفار للعلمِ رضًى بالجَهْلِ وإيثارًا للضَّلالِ

وعبَّر النَّظْمُ بصيغةِ المضارعةِ إشارةً لاستمرارِ عدمِ قابليَّتِهم للعلمِ وتَجَدُّدِ جَهْلِهم، فانتفاءِ العِلْمِ لا ينْقطعُ، إذْ هو يَتَجدَّدُ حينًا بعدَ حينٍ، وذلكَ لأنَّ المصدرَ الَّذي يَردونَ منه إنَّما هو التَّكْذيبُ والإنكارُ، فلا يَكْتَسِبونَ عِلمًا، ولا يَحوزون فضْلًا، وجاءَ الفعلُ مُسْنَدًا إلى ضميرِ الجمعِ للدلالةِ على اجتماعِهم على نكرانِ العلمِ والاستكبارِ عنِ الإيمانِ.

نكتةُ الإخبارِ بِنَفْيِ العلمِ عَنهم:

نَفْيُ العلمِ دونَ إثباتِ الجهلِ حثٌّ خَفيٌّ على سلوكِ طريقِ العلمِ بالآخرةِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءتِ الآيةُ بنفيِ العلمِ عنْ مُنكري البعثِ المكذِّبينَ به، لا بإثباتِ الجهلِ، على ما يَقْتَضيه الظّاهرُ، إذْ هو الأقبَحُ، ويُمكِنُ القولُ إنَّ هذا النفيَ دونَ الإثباتِ يُرادُ بِهِ التَّلَطُّف مَعَهُم، بِحَثِّهِم على سلوكِ طريقِ العِلْمِ بالآخرةِ[3]، الَّذي هو طريقُ الفَلاحِ والنجاحِ والنجاةِ، لعلَّهُم يتركونَ ما هُم فيه من ضلالٍ وتكذيبٍ، ويمكِنُ كذلكَ أنْ يكونَ الغرضُ منْ عَدَمِ الوصْفِ بالجهلِ إشارةً إلى الجهلِ المُرَكَّبِ الَّذي خاضوا فيهِ وامتلأتْ بِه عقولُهُم، ولعَلَّ هذا الوجهَ أرجحُ من الوجهِ الأولِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 136.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

لطيفةُ حذفِ مفعولِ العلمِ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

الكُفّارُ لا يعلمون كلَّ ما لَهُ صلةٌ بالهِدايةِ فهُم في ضلالٍ مبينٍ

أطلقَ النَّظْمُ الجليلُ عدمَ العلمِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولمْ يُقَيِّدْه بشيءٍ بعينِه ممّا يصلُحُ في هذا المقامِ، ولمْ يُبَيِّنْ أيَّ شيءٍ لا يعلمونَهُ، والمرادُ شُمولُ كلِّ ما لَهُ صلةٌ بالهِدايةِ، فَهُم لا يعلمونَ العلمَ الصحيحَ الموصلَ للآخرَةِ، ولا يعلمونَ صدقَ الأنبياءِ والمرسلينَ فيما بلَّغوا عنْ رَبِّهم، فهُم في ضلالٍ مبينٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَثَلُ والمِثْلُ والشّبيهُ والنِّدُّ:

المَثَلُ قولٌ مضروبٌ لبيانِ المشابهةِ بينَ أمرينِ بينهُما جامعٌ عقليٌّ

مادة (مثل) تدلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، فمِثْلُ الشيءِ نَظيرُهُ، وكذلكَ المِثالُ، والمَثَلُ: المِثْلُ أيضًا، كَشَبَهٍ وشِبْهٍ، والمَثَلُ المَضْروبُ مَأخوذٌ مِنْ هَذا، لِأَنَّهُ يُذْكَرُ مورًّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ في المَعْنَى[1]، وهو عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخرَ بينهُما مشابهةٌ، ليُبَيِّنَ أحدُهُما الآخر ويصوّره، وعادةً ما يكونُ الجامعُ بينَهُما جامعٌ عقليٌّ، وهو أعمُّ الألفاظِ الموضوعةِ للمُشابَهَةِ، وذلك أنّ النِّدَّ يقالُ فيما يشاركُ في الجوهرِ فقط، والشِّبه يقالُ فيما يشاركُ في الكيفيّةِ فقط، والمساوي يقالُ فيما يشاركُ في الكمّيّةِ فقط، والشّكل يقال فيما يشاركُهُ في القدرِ والمساحةِ فقط، والمِثْلَ عامّ في جميعِ ذلكَ[2]، والمَثَلُ مَجازٌ عَنِ الصِّفَةِ الغَريبَةِ، وقد عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في الآيةِ بالمَثَلِ؛ لأنَّ المرادَ بِه سوقُ حكايةٍ مشابهَةٍ لاستخراجِ الدَّليلِ العَجيبِ القاضي بوجوبِ الإيمانِ بالبعثِ والآخرةِ.

الطبعُ والختمُ والطمسُ:

الطَّبْعُ أعمّ من الختمِ وأخصّ من النّقش

الطَّبْعُ أثرٌ يَثْبُتُ في المطبوعِ ويلْزَمُهُ، فَهو يُفيدُ من معنى الثَّبات

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (مثل).

واللزوم ما لا يفيدهُ الخَتْم، ولِهَذا قيل: طُبِعَ الدِّرْهَمُ طَبْعًا، وهو الأثر الَّذي لا يَزول عَنهُ، كَذَلِك أيْضا قيل طبعُ الإنسان؛ لِأَنَّهُ ثابتٌ غيرُ زائلٍ[1]، والطَّبْعُ: أن تصوّر الشيء بصورة مّا، كَطَبْعِ السّكّةِ، وطَبْعِ الدّراهم، وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش[2]، ومِنْ ذَلِكَ: طَبَعَ اللَّهُ على قَلْبِ الكافِرِ، كَأَنَّهُ خَتَمَ عليه حَتَّى لا يَصِلَ إِلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ، فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[3]، والختم إنهاءُ الشيءِ ومنعُ الزيادةِ عليه بتسويةِ ظاهرِه وتغطيتِه على ما في أثنائِه[4]، وأمّا الطَّمْس: فهو إزالةُ الأثرِ بالمحو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ [المرسلات: 8]، وقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: 88]، أي: أزل صورتها، وقالَ سبحانَه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: 66]، أي: أزلنا ضوءَها وصورتَها كما يُطْمَسُ الأثرُ[5].

ويمكنُ القولُ إنَّ استعمالَ هذهِ المُفرَداتِ الثلاثِ يأتي لإفادةِ عدمِ قبولِ الهدى بشكلٍ عامّ، وأنَّ الفرقَ بينَها أنَّ الطَّبعَ أثَرٌ لازمٌ لا يتغيَّرُ، وأنَّ الختْمَ تغطيَةُ الشيءِ بعد بلوغِ النهايةِ، وأمّا الطمسَ فتغييرُ معالمِ الصورةِ تغييرًا لا يبقى معهُ شيءٌ من معالمِها الأصليَّةِ، وقد آثرَ النَّظْمُ في الآيةِ الكريمةِ التعبيرَ بالطَّبعِ إشارةً إلى إعادة تَشَكُّلِ قلوبِ الكفّارِ، فلا تقبلُ هدًى ولا نورًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 73.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (طبع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ختم).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (طمس).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»